في الأدب الشرقي

الادب الفارسي والادب العربي

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأستاذ بكلية الآداب

— ١ —

أمة ذات حضارة فاتت التاريخ اوليتها ، ونظم أمرتها الحقب الطويلة يقوم عليها ملوك مسلطون رفعوا الى مستوى فوق البشر أقدامهم ، وأثر لهم بهذا رعاياهم ، وقد طار صيتهم فى الآفاق فملأ جبروتهم رهبة واكبارا . أمة ذات دين نصر للملوك ونصروه فاشتد توامه على كل مخالف وارهبوا كل متبوع . نزلت هذه الأمة أرضا وسطا بين مهد الآريين والساميين يجاورها فى الغرب بابل وأشور ، ويصاقبها فى الشرق الهند . ثم يتصل بها من الشمال والشمال الشرقى الترك والصين . فاض بها سلطانها حتى غزت اليونان فى عقر دارهم ، وغزت كثيرا من أوروبا الشرقية الجنوبية . وملكت الشام وفلسطين ومصر . وكانت الحرب من بعد سجالا بينها وبين الروم . كانت بلادها طريقا للتجارة بين الشرق والغرب . وموصلا بين حضارتيهما . وكانت موئلا للفلسفة اليونانية . وملجأ للعائذين من فلاسفة اليونان . تلكم أمة الفرس التى يقول فيها منيار :

قومى استولوا على الدهر فنى ومشوا فوق رءوس الحقب !
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم بالشهب !

وأخرى من الأمم عريقة فى البداوة وأبية على كل عسف ، حديثة عهد بالخضوع حتى لسلطان الله ، أنضجتها البداوة فاذا هى قوية نشيطة ذكية متوقدة ، وأورثتها معيشتها وحروبها ضروبا من العزة والشجاعة والفروسية والصبر على المكاره ، والقناعة بالقليل ، وجمع كلها وأثار قلوبها الدين ، وتلكم هى أمة العرب .

— ٢ —

بينما كان الاسلام يجمع شمل العرب كان الفرس مسيطرين على عرب الحيرة يتخذونهم عونا على الاعراب ، وعلى الرومان — كما كان الرومان يستعينون بالغساسنة بالشام — وكان الفرس كذلك مسيطرين فى اليمن والبحرين . وقد أعظم العرب شأنهم فهابوهم وسموهم الاسد ، وسموا قبائل ربيعة التى كانت تجاور الفرس وتأبى عليهم أحيانا — ربيعة الاسد من أجل ذلك — وعرفوا من أخبارهم وعاداتهم ما جعلوه مضرب المثل ، وعرفوا كذلك دينهم حتى يقال إن من بنى تميم من كان يعبد النار . وفى ذكر القرآن للمجوس كثيرا دلالة على هذا .

فلما استقام للعرب أمرهم خلص اليمن بغير عناء وأسلم الفرس هناك ، حتى قاتلوا مع المسلمين الاسود العنسي المتنبىء ، وكذلك أجل عامل كسرى على البحرين أيام أبى بكر ، وأسلم هناك من أسلم ودفع الجزية من بقى على دينه . ثم عادي المسلمين الفتح فاذا هم يقاتلون فى جهات العراق عربا وفرسا قد تخالطوا حتى لم يتميز بعضهم من بعض وحتى كان العرب بدأ مع الفرس على العرب إبان الفتح فخالد بن الوليد يقول لأهل الحيرة : أعرب أنتم فما تفضلون من العرب ؟ فيحتجون لعربيتهم بأنهم ليس لهم لسان غير العربية ، تتلمل للمسلمون فى فتح بعد آخر ، سلماً وحرباً فاذا هم ينازلون الاكاسرة أنفسهم ، وأيقن الفرس أن الامر جد لا هزل ، وكان قد اجتمع امرهم بعد الفرقة ليزدجرد الساس فساقوا على العرب جيشاً حشدوا فيه من عدد الحرب وجندها مالا عهد للعرب به ، ولم يكن بد للعرب من المقاومة فاستنجدوا الخليفة عمر فأهمته حرب فارس ، وندب الناس اليها فتثاقلوا اعظاما لأمر الفرس واستفز عمر العصبية العربية ؛ ورضى أن يدعى الى الحرب مسلمهم وغير مسلمهم . وقد اهتم الفرس بأمر القادسية أيما اهتمام ، وارتقب العرب عقباها من العذيب الى عدن أبين ومن الابلة الى ايلة — كما يقول الطبرى

وكانت القادسية أول موقعة عظيمة حشدها الجمعان ما استطاعوا ، ولكنها لم تكن أعظم الوقائع ولا آخرها فموقعة نهاوند التي سماها العرب فتح الفتوح ، وهى آخر الوقائع العظيمة ، كانت بعد القادسية بسبع سنين ، وبينهما وقائع ، وكان ملك الفرس يزدجرد ، لا يزال يكر على العرب فى الحين بعد الحين ، ويستمد الترك وقد تعقبه العرب الى أقصى الشرق ، واستمر على ذلك حتى سنة ٣١ . سبعة عشر عاما بعد القادسية فبينا يتهيأ لصلح العرب على بعض الاقاليم تقتله بعض اتباعه كما قتل دارا من قبل . وبينا يتعقبه الاسكندر المقدوني . وبذلك تم للعرب الاستيلاء على فارس رغم الثورات التى كانت تظهر فى الحين بعد الحين الا جهات فى طبرستان وجيلان لم تفتح الا بعد قرنين وبقى بعد ذلك امراء فى جهات نائية قرونا طويلة .

— ٣ —

فتح العرب الاقطار باسم الدين فلم يكن الا أن يسلم الفارسى فاذا هو واحد من المسلمين الفاتحين ، ثم كان حكمهم على رغم مصائب الحروب ونظائمها عدلا لا عنف فيه . وكان فى الفرس على هذا من وجدوا فى الفتح الاسلامي مخلصا من اضطهاد دينى ، فقد كانت الزردشتية شديدة على من شذ عنها ، أو وسيلة الى جده ...

فالديلم من جند الفرس انحازوا للمسلمين (بعد القادسية وأسلموا) وعاونوا فى واقعة جلولاء ، ثم استوطنوا الكوفة . ونجد من الفرس مثل (ابى الفرخان) الذى عاون العرب فى فتح الرى فولى عليها . ونجد مرزبان مرو يخذل يزدجرد ويرسل أمواله بعد ان قتل الى أمير العرب هناك .

وقد أعطى العرب الفرس الذين قاتلوا معهم حظهم من الغنائم وفرض عمر فى العطاء لمثل المرزبان فى المدينة وأحسن العرب الى الفلاحين الذين لم يقاتلوا . ويقول الطبرى (عن أهل فارس) وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا فى زمن الاكاسرة فكانوا كانما هم فى ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا. وقد بقى الفرس أحراراً فى دينهم وبقيت معابد النار فى الجهات كلها ولا سيما فى فارس . فقد حكى المؤرخون كالاصطخرى وابن حوقل انه لاتوجد قرية فى فارس بغير معبد للنار ، وان جمهور أهلها من عبدة النار وانهم فى شيراز لا يمتازون من المسلمين فى مظاهرهم وكانت معابد النار تحمى ويساقب مخربوها .

وانما تناقص عدد الزردشتيين بدخول كثيرمنهم فى الاسلام ، وقد دخلوا فيه أفواجا حتى شكا عامل خراسان الى عمر بن عبد العزيز قلة الجزية فأرسل اليه لعن الله بنى محمدا صلعم هاديا ولم يبعثه جابيا . على انهم بقوا كثيرين الى عصر قريب . ويقول Khonikof أن كرمان حين حاصرها محمد خان قاجار كان فيها ١٢ الف أسرة زردشتيه

انما انيض فى هذا لأبين أن العرب والفرس بعد الفتح لم يكونوا فى نضال مستمر . وان العرب لم يستعبدوا الفرس كما يحسب بعض الناس . لم يفعل العرب الا ان حطموا الحدود الوطنية فشاركوا الفرس فى جماعة اوسع . ونالوا من العلوم والآداب التى تعاونت عليها الامم الاسلامية ، ونالوا عليا المناصب . فالبرامكة مثلا كانوا يديرون للعباسيين ملكا أعظم وأوسع مما كان يديره بزرجمهر لانو شروان .

— ٤ —

الآداب الفارسية الحديثة تؤرخ من القرن الرابع الهجري (تقريباً) — كما يأتى — فماذا أصاب اللغة الفارسية فى ثلاثة القرون التى تلت الفتح الاسلامى ؟ وماذا أصاب الفرس فى هذه القرون ؟

فى اجابة هذين السؤالين يجب أن نفرق تفريقاً تاماً بين الكلام على الفرس ، والكلام على اللغة الفارسية .

فاما اللغة الفارسية فالكلام عنها من جهتين : من حيث انها لغة تخاطب ومن حيث انها لغة العلم والأدب . فاما من الوجهة العلمية فقد وقفت اللغة وقفة طويلة ، ولم يؤلف فيها الا كتب قليلة معظمها فى الدين ، ويمكن ان يقال انها عقمت تماماً بعد قرنين من ظهور الاسلام ، فالكتب التى ألفت فى العصر الاسلامى وبقيت على الزمن لاتتجاوز عصر المأمون ، وهى كتب دينية قليلة أراد بها الزردشتيون الدفاع عن دينهم والابقاء عليه — ولكن كان للغة الفهلوية عمل اعظم من هذا وأبقى أثراً هو حفظها آداب الساسانيين . وتاريخهم فى كتبها لتكون معبراً للترجمة الى اللغة العربية ، ولتكون من بعد أساساً للآداب الفارسية الحديثة فقد بذل رجال الدين أو الموابذة وملاك الأراضى أى الدهاقين جهدهم فى حفظ كتبهم ، وكان الساسانيون من قبل ذوى عناية بالكتب وحفظها . ويمتاز اقليمان فى ايران بأن كانا موئل الآثار الفارسية : فارس وخراسان — كما امتازت طبرستان بوعورة ارضها وكثرة غاباتها فبقى فيها استقلال الفرس مدة طويلة — فاما خراسان فكانت مبعث الشعر الفارسى الحديث ، واما فارس مهد الدول الفارسية القديمة فقد لاذ بجبالها جماعات من الزردشتيين . فمكنوا على درس آدابهم القديمة وحفظ كتبها فحصن شيز فى جهة ارجان كان مسكن عيون خبراء بايران وتاريخها . وكان به صور الملوك والعظماء وتاريخهم ، هكذا يقول الاصطخرى وابن حوقل ، ويؤيد هذا مايقوله المسعودي : انه رأى فى اصطخر عند اسرة فارسية كبيرة كتاب الملوك يتضمن صور الملوك وأزمنتهم ووصف آثارهم . ويتصل بهذا ما رواه صاحب الفهرست عن أبى معشر ان الفرس القدماء خزنوا كثيرا من كتبهم فى اصفهان فى بناء عظيم بقى الى زمان أبى معشر ، وان الناس عثروا على كتب فيه ، ثم يقول ابن النديم « اخبرنى الثقة أنه انهار سنة ٣٥٠ أزج آخر عن كتب كثيرة لايهتدي الى قرامتها . والذى رأيته أنا بالمشاهدة ان أبا الفضل ابن العميد أرسل هاهنا فى سنة ثيف وأربعين كتباً متقطعة أصيبت باصفهان فى سور المدينة وكانت باليونانية ألخ

ففى أمثال حصن شيز وبناء اصفهان حفظت الكتب القديمة التى ترجمت الى العربية أيام الدولة العباسيه .

« لها بقية »

« بقية المنشور على صفحة ١٣ »

ياشبان الشرق — هأنتم أولاء تطالعكم قوى التجديد من حيث تحسون عناصر الخود ؛ وهاهو ذا الاسلام الدين الحى يدعوكم دعوا الى مسايرة نواميس الكون ؛ ومجاراة نظم الجماعات الانسانية ؛ وهذا تاريخكم المجيد يغذى حاضركم الحديث فلا عذر اليوم لكم اذا لم تشتد تلك العزمات لتسمع الدهر صوتاً طالما أصغى اليه أزمانا وحمدا له فسار ؛ ومضى حيث صرف واحكم فيه

يا شباب مصر : هاكم ماضيا مجيدا فى السيادة والزعامة ، لم يدع ميدانا الا حله وها هي ذى مصركم مهبط الدنيا قد أتت اليكم لواء هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانها وعاندها الغرب وجحد حقها . والحياة العاملة اليوم انما تكتب للامة الصناع والشعب الدءوب فلابد أن تتصدر مصركم ماتصدرت من سائر الميادين قديما وسيبقى ثبات شبابها بمشروعهم العملى صروحا سامقة من القوة المادية تشهد أن الذين عرف أسلافهم كيف يحمون الفلسفة ويحمون العلم ويذودون عن الاديان يعرفون هم جيدا كيف يؤسسون الصناعة على أساس أبقى على الدهر من الدهر